الى صديقي ...

حول زيارة لضريح ابن عربي

للأستاذ صديق شيبوب

هنيئاً لك يا أخي تنقلك بين مصايف لبنان المرتفعة منها والمنخفضة ، بين الجبال الشاهقة والأودية السحيقة ، بعيداً عما نعانيه من حر مضن ورطوبة قاتلة ونزلة وافدة . ولعلك بعد أن تتم طوافك في لبنان لا تنسى أن تزور دمشق لأنه لا بد لكل من يصطاف بلبنان من أن ينتهي بزيارة الفيحاء ، أو كما قال شاعرنا العربي

تمام الحج أن تقف المطايا على خرقاء واضعة اللثام

ولدمشق سحر خاص تتميز به عن غيرها من البلدان العربية الكبرى . ولا أصف لك الحدائق الغناء التي تحيط بها ، وهي نفحة من نفحات الجنان ، ولا الآثار البديعة القائمة فيها وبعضها من الروعة بمكان . فإنك ستزورها وستشهد هذا جميعه وتعجب به

وزائرو دمشق يكتفون عادة من آثارها بالجامع الأموي ودار المجمع العلمي والمكتبة وبعض القصور القديمة وبعض المصانع الوطنية ؛ وقليل منهم من يفكر في زيارة ضريح الشيخ محي الدين ابن عربي ، أو يفطن إلى أن « بحر المعارف الإلهية ، وترجمان العلوم الربانية ، الشيخ الأكبر ، والقطب الأنور » كما يلقبه الشيخ عبد الغني النابلسي ، مدفون فيها

ولقد زرت دمشق أكثر من مرة ، وكنت في كل مرة أتردد على الأماكن التي تعود الناس زيارتها . ولم أفطن مرة إلى ضريح « الشيخ الأكبر » كما يلقب علماء الصوفية ابن العربي بالرغم من أني ركبت أكثر من مرة (تراماً) يعرف خطه باسم « الشيخ محي الدين » في غدوي ورواحي إلى حي الصالحية حيث كنت أقيم

ولم يخطر ببالي في زياراتي الأولى أن أسأل من هو محي الدين هذا . ولا أخفي عنك أني لو سألت يومئذ عنه وقيل لي إنه ابن العربي لما نبه في ذهني خاطراً بعيداً ، أو بعث في نفسي شوقاً مزيداً إلى زيارة ضريحه ، لأني لم أكن أعرف عنه أكثر من أنه إمام من أئمة الصوفية وأنه صاحب هذه الأبيات الجميلة التي كنت أحفظها من غير أن ألتفت إلى معناها الصوفي وهي :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه دان
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لنيران ومعبد طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه ، فالحب ديني وإيماني

ولم أكن أعرف ابن العربي ، كما وصفه الشيخ صفي الدين ابن أبي منصور في تعابير صوفية رائقة ، فقال إنه « الشيخ الإمام المحقق ، رأس أجلاء العارفين والمقربين ، صاحب الإشارات الملكوتية ، والنفحات القدسية ، والأنفاس الروحانية ، والفتح الموثق ، والكشف المشرق ، والبصائر الخارقة ، والسرائر الصادقة ، والمعارف الباهرة ، والحقائق الزاهرة ، والمحل الأرفع من مراتب القرب في منازل الأنس ، والمورد العذب في مناهل الوصل ، والطول الأعلى في معارج الدنو ، والقدم الراسخ في التمكين من أحوال النهاية ، والباع الطويل في التصريف في أحكام الولاية . وهو أحد أركان هذا الطريق »

أو كما وصفه الذهبي : « وله توسيع في الكلام ، وذكاء وقوة خاطر وحافظة وتدقيق في التصوف ، وتآليف جمة في العرفان . ولولا شطحه في الكلام لم يكن به بأس . ولعل ذلك وقع منه حال سكره وغيبته »

أو كما وصفه المسدي : « كان ابن العربي ظاهري المذهب في العبادات ، باطني النظر في الاعتقادات ، خاض بحار تلك العبادات ، وتحقق بحكما تلك الإشارات ، وتصانيفه تشهد له عند أولي البصر بالتقدم والإقدام ، ومواقف الغايات في منازل الأقدام »

أو كما قال أيضاً : « وكان جميل الجملة والتفصيل ، محصلاً لفنون العلم أخص تحصيل ، وله في الأدب الشأو الذي لا يلحق »

أجل لم أكن أعرف هذا جميعه عن ابن العربي ، بل لم أكن أعرف كثيراً أو قليلاً عن أئمة المتصوفين لأني وصلت إلى دراسة

التصوف متأخراً ... بل إنى لم أكن أتذوق كما يجب أشعار ابن الفارض لأنى لم أكن أفطن إلى كل معانيها الصوفية .

وأذكر اليوم فى شىء من الخزى أن كبيرة أديباتنا العربيات زارت منذ سنين ضريح ابن الفارض بالقاهرة بسفح المقطم، أو كما قال حفيده الشيخ على فى رثائه المعروف «بالقرافة تحت ذيل العارض» ثم كتبت عنه مقالاً كله إطراء وثناء ؛ وكان أن لقيتها بعد ذلك بالأسكندرية حيث كانت تصطاف وقلت لها : إنى لا أشاطرها إعجابها به . فأجابتنى بأنه يجب أن أحاول فهم شعر ابن الفارض من الناحية الصوفية قبل أن أتحدث عنه كشاعر

ولعل هذا كان أول حافز لى لدرس الصوفية على قدر اجتهادى

ولا شك أن لابن الفارض مكانة خاصة فى شعرنا العربى لأنه يكاد يكون الوحيد الذى عالج شعر الصوفية على النحو الذى تحاه شعراء الفرس والترك الصوفيون المبتدعون أمثال العطار وجلال الدين الرومى وسعدى وحافظ . ولا يدانيه فى هذا الباب غير ابن العربى ، وإن يكن قد قصر عنه . فابن الفارض إذن فارس هذه الحلبة فى لغتنا العربية وبطلها الفرد ، وقد قال فيه نيكلسون : « إن أشعار ابن الفارض غاية فى اللطف » . ولا أذكر الآن من قال فى وصف ديوانه إنه «معجزة فى عالم الأدب»

والصوفية فى شعر ابن الفارض مراتب من حيث الوضوح والغموض . ولعل « خمريته » تحسب وسطاً بين شعره الغنائى الغزلى وبين « التائية الكبرى » المعروفة بنظم السلوك

وهل أروى لك للدلالة على تشعب معانى هذه القصيدة الأخيرة ما ذكروا من أن أحدهم قصد ابن الفارض يستأذنه فى شرحها ، فسأله عن مقدار الشرح ، فقال : إنه سيقع فى مجلدين . فضحك الشاعر الصوفى وقال : « لو أردت لكتبت مجلدين تفسيراً لكل بيت فيها »

على أن المقريزى ذكر فى ترجمة عمر بن الفارض أن محيى الدين ابن العربى بعث إليه فى شرح التائية الكبرى فرد عليه الشاعر : « كتابك المسمى بالفتوحات شرح لها » إشارة إلى كتاب ابن العربى « الفتوحات المكية » الذى جمع فيه شتات العلوم الصوفية فى خمسمائة وستين باباً

وبين ابن العربى وابن الفارض بعض الشبه . كانا متعاصرين فكلاهما من رجال القرن السابع للهجرة ، أى القرن الثالث عشر للمسيح ، فقد توفى ابن الفارض سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) وتوفى ابن العربى سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) . وكان ابن الفارض يصاب بدورة إغماء وغيبوبة فإذا أفاق منها أملى أشعاره ؛ وكان ابن العربى يعتقد أن ما يكتبه يتحول إليه بطريق الوحى فى حالة الغيبوبة والمجاهدة . وكلاهما من أئمة الصوفية ، ولكن بينما هى غامضة بعض الغموض عند ابن الفارض لأنه يرمز إليها فى صور شعرية، نجدها واضحة عند ابن العربى لأنه يبحثها نثراً . وكان ابن الفارض ينظم غزلاً يرمز به إلى الله فى غير حبيب مجهول ، ويكثر فيه من أنواع البديع بينما نجد ابن العربى ينظم شعره من غير أن يتعمد أنواع البديع فى فتاة مكية

أما من حيث المحسنات البديعية فلعل الفرق ناتج عن المحيط الذى نشأ فيه كل واحد من الشاعرين . فقد ولد ابن الفارض فى القاهرة ونشأ فى محيط شرقى فاكتسب بشعره الميزات التى كانت بارزة فى بيئته بين معاصريه . أما ابن العربى فقد ولد بمرسية (فى ١٧ رمضان سنة ٦٥٠ هـ . أى ٢٨ يوليو سنة ١١٦٥ م .) ونشأ وتأدب فى بلدان الأندلس بين أشبيلية وسبتة ، وقد استقر فى الأولى ما يقارب الثلاثين عاماً ، ولم يبرح إلى المشرق إلا عندما شارف الأربعين سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠١ — ١٢٠٢) فاكتسب شعره مميزات مواطنيه ، وكانوا أقل عناية بالمحسنات اللفظية من شعراء مصر والشام والعراق

أما معشوقته ففتاة مكية تسمى « نظاماً » وتعرف بلقب « عين الشمس » . وكان والدها من علماء فارس الذين نزحوا من بلادهم وأقاموا فى مكة . وكانت لما عرفها ابن العربى فى الرابعة عشرة من عمرها على كثير من العلم والمعرفة ، بليغة الخطابة ، جيدة الكلام ، بارعة الجمال . وقد لقيها أثناء إقامته بمكة عام ٥٩٨ أى غب رحلته من بلاد الأندلس. ثم نأى عن مكة زمناً حتى إذا عاد إليها سنة ٦١١ نظم فيها بعض القصائد فوصف جمالها الفتان وعلمها الواسع وذكر ما كان بينه وبينها من حب . ثم رأى بعد ذلك

أن يتبع هذا الديوان الصغير بشرح صوفي

* * *

بعد بنا هذا جميعه عن ضريح ابن العربي وزيارته

وهنا يجب أن أذكر شيخنا التفتازاني رحمه الله. سألته مرة أين قبر ابن العربي؟ فقال بأسلوبه المذب الذي تذكره: كيف لا تعرف ضريح ابن العربي؟ وكيف تزور دمشق ولا تزوره؟ إنه فيها بعد « الجسر » وتصل إليه بخط ترام معروف باسمه « الشيخ محي الدين ». ألم تقرأ في الشعراني قوله: « وقبر ابن عربي[1] في الشام، وقد بنيت عليه قبة عظيمة وتكية وفيها طعام وخيرات » قلت ولكني أعرف أنه توفي بدمشق ولكنه نقل إلى جبل قاسيون ودفن بسفحه. قال: وقاسيون هو الجبل المطل على دمشق والذي بنيت في سفحه في شكل مدرج المدينة الجديدة والحي الذي يعرفونه اليوم باسم المهاجرين

وكان أني زرت دمشق بعد ذلك ولآخر مرة في صيف سنة ١٩٣٥، وأقمت فيها أياماً ضيفاً على أحد أقاربي، ولما كان يقيم بالصالحية، وهي في أول مرقى الجبل قبل المهاجرين، كنا نركب الترام في الغدو والرواح. وهناك خطان أحدهما يعرف باسم « المهاجرين »، والآخر باسم « الشيخ محي الدين ». والحق أني كنت نسيت ابن العربي ووصية الشيخ التفتازاني. وساقني الفضول مرة فسألت قريبي من يكون الشيخ محي الدين هذا. فقال: إنه عالم صوفي يعرف بابن العربي، وأن له ضريحاً ومسجداً في آخر خط الترام فندعوه باسمه. وهنا تذكرت الماضي وقلت: أجل يجب أن نزوره

وبعد ظهر ذلك اليوم أقلتنا عربة أخذت ترقى بنا الجبل حتى وصلنا إلى حيث المسجد بعد أن اجتزنا حياً وسوقاً تختلف أبنيتهما جدة وقدماً، وأكثرها قديم. وكان جماعة من الفقراء يزدحمون بباب المسجد؛ فإذا تجاوزت الباب استقبلك بهو واسع تتوسطه بركة ماء كبيرة، وفي آخر البهو إلى الشمال الضريح، وهي غرفة حسنة الاتساع طفت بها فإذا على حائطها كثير من الشعر المنقوش على رخام قائم في الحائط. وحاولت أن أقرأ بعض الشعر فوجدته باللغة التركية. وقبل أن أستطيع الإلمام ببقيته تقدم إلينا شيخ وقال: قد أزفت صلاة العصر فهلما نصلي ثم تتابعان زيارتكما بعد ذلك

ولا أذكر الآن كيف تخلصت من الشيخ ودعوته إلى الصلاة، ولكني وجدت وقتئذ أننا في موقف حرج لأني أجهل ماذا يكون شعوره لو عرف أننا مسيحيان. وأشرت إلى صاحبي أن من الخير أن نغادر المكان على أن نعود في فرصة أخرى أكثر ملاءمة من هذه، فخرجنا. ولم تتح لي فرصة أخرى للعودة

* * *

كانت العربة تهبط من الجبل، ونحن نستشرف تارة الحقول المنبسطة، وأخرى دمشق بقبابها اللامعة ومآذنها العالية تتخللها الأشجار الباسقة وتكتنفها الرياض والبساتين، ونستجلي هذا المنتشر في الأفق الحاني والطبيعة الساهمة والمدينة المنبسطة. وكنت لا أزل تحت تأثير زيارة الضريح أفكر في الأندلسي الذي طاف البلاد العربية فكان في كل مكان يحله كأنه بين أهله وإخوانه يتقرب إليه الناس ويجرى عليه الحكام الأرزاق فيوزعها على الفقراء والمعوزين. أليس دينه الحب كما قال في أبياته التي ذكرها.

وهذا الجمال الذي نشرف عليه ونستجليه في هذه المناظر الخلابة، أليس من صنع الله، وما دام من صنعه فهل هو قائم فيه حقاً. وهل صحيح ما قاله ابن العربي « سبحان من خلق الأشياء وهو عينها » أو ما نظمه شعراً:

يا خالق الأشياء في نفسه ... أنت لما تخلقه جامع
تخلق ما لا يقتضي كونه ... فيك فأنت الضيق الواسع

وذكرت هذه الفلسفة الشمولية التي نادى بها العربي والقائمة على مذهب وحدة الوجود. ولا عجب فقد كنت « مسافراً » على حد تعبير ابن العربي الذي قال إن « السفر » عبارة عن القلب إذا أخذ في التوجه إلى الحق تعالى. ولاشيء أدعى إلى هذا التوجه مثل التأمل بجمال الطبيعة.

(١) كانوا في الغرب يلقبون الشيخ محي الدين بابن « العربي » لأنه كان من أصل عربي فمن ينتسب إلى حاتم الطائي، وعند ما نزح إلى المشرق عرفوه فيه بابن « عربي » من غير أداة التعريف، تمييزاً له عن القاضي أبي بكر بن العربي

وفهمت وقتئذ كيف شذ ابن العربي عن أشياع نظرية وحدة الوجود المادية فتوجه بها إلى عبادة الخالق والشعور بالافتقار إليه تعالى ، وهي عبادة الضعيف للقوي والفقير للغني . وفهمت كيف أنه بالرغم من شعوره الديني الإسلامي العميق قال بوحدة الأديان لأنها جميعاً تدعو إلى عبادة الواحد المتجلي في صورهم وصور جميع المعبودات

والحق أنني اليوم وأنا أكتب إليك بين جدران حجرتي أجد من الصعب أن أذكر كل هذه الخواطر التي مرت بذهني بينما كنت أتحدر من جبل « قاسيون » إلى دمشق .

* * *

وبعد فإني أرجو ألا تجد في هـذه الرسالة صورة كاملة لابن العربي ، ولـكنها خواطر جالت بفكري عنـد ما أردت أن أنبهك إلى ضرورة زيارة ضريحه . وأنت تجد أني لم أحدثك عن حياته وآرائه ومؤلفاته وما قام حول مذهبه من جـدل حمل بعضهم على رميه بالـكفر وما كان من أثره بين أهل الشرق والغرب وخاصة ما وجده المستشرق الإسباني « ميجل اسين » من شبه بينه وبين « دانتي » فألف كتاباً قرر فيه أن الشاعر الإيطالي أخذ كثيراً عن المتصوف العربي وتأثر به في نظم قصيدته الخالدة « الـكوميديا الإلهية » أو كما قال البحاثة الإنكليزي « ألفريد جيوم » إن ابن العربي كان من الذين « أخرجوا للناس النماذج المدهشة الأولى للـكوميديا الإلهية »

على أنني لا أريد أن أختم رسالتي إليك قبل أن أروي لك قصـة ذات دلالة كبيرة على طريقة هؤلاء الصوفيين ومنازعهم الفكرية والتأملية . فقد رووا أن ابن العربي اجتمع بالشهاب السهروردي فأطرق كل واحد منهما ساعة ثم افترقا من غير كلام . فقيل لابن العربي ما تقول في السهروردي ؟ فقال : « مملوء سنة من قرنه إلى قدمه » وقيل للسهروردي ما تقول في الشيخ محيي الدين ؟ فأجاب: « بحر حقائق »

ولعلك تكون يا أخي أكثر توفيقاً مني عنـد زيارة ضريح ابن العربي وأعمق شعوراً بما يطوف بك من جمال .

(الأسكندرية) صديق شيبوب

بطـــاقة ...

للدكتور محمد ناجي

بطاقة تحمل على صدرها اسم صاحبها مجرداً من أي لقب ، وخلوا من أي عنوان أو رقم تلفون ؛ وكأني به لا يحمل لقباً ، ولا يعرف لنفسه عنواناً ، ولا يملك رقم تلفون ، ولم يمن الله عليه إلا ببضعة قروش ثمن بطاقته

مرت تلك البطاقة على ناظري ، ثم جالت بخاطري ، حتى شغلتني عن أمري ، فعجبت لها أيما عجب !

بطاقة فريدة في نظمها ، عجيبة في نثرها ، قليلة في لفظها ، حفرت في أمرها ، وضاق بي تفسيرها ، ولم أدر ما شأنها ومن يكون حاملها ؟

إنها تخالف بطاقات العصر ، هي في واد والعصر في واد . بطاقات العصر تحمل من الألقاب والعنوانات والأرقام ما ليس لها ومالها، كأن الشيطان أوحى لها، حتى لا تدع موضعاً للقب جديد، أو زيادة لمستزيد ...

فمن يكون هذا الذي يخالف العصر في بطاقته، ويبز أبا العجب في نزعاته ؟ إنه محمد طلعت حرب . ذلك الرجل المتواضع حتى في بطاقته ، ولو شاء أن يسطر اسمه وألقابه وعنواناته وتلفوناته لـكانت بطاقته كتاباً

إن بطاقته تحمل في نفسها أدب الإعلان عن النفس ، إنها لحـكمة بالغة ، تسيطر على الحس والنظر والفؤاد ، إذ لها في كل قلب مستقر وفي كل واد أثر . هذه هي البطاقة التي برت الزمن وعلمت المصري ما لم يكن يعلم . إنها تذكرة القدر ، وإنها لإحدى العبر ، فطوبى لمن قرأ وادكر ، وعرف قدر نفسه واعتبر ...

محمد ناجي

عضو القومسيون الطبي العام